علم النفس والتصوف

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة

ورث فلاسفة الاسلام علم النفس عن أرسطو بوجه خاص ، فكان كتابه مترجما ومتداولا ومعروفاً ، ويذهب فيه إلى أن النفس «كمال أول لجسم طبيعى آلى ذى حياة بالقوة» ، أو باللغة الحديثة : النفس مجموعة الوظائف الحيوية للكائن الحى ، ثم فصل هذه الوظائف الحيوية تبعا لتقسيم النفس إلى نباتية وحيوانية وإنسانية ، إلى الغذى والنمو والتوليد ، فيما يختص بالنفس النباتية ، والتى يسميها الغاذية أيضا ، وإلى الإحساس والتذكر والتخيل والنزوع فيما يختص بالنفس الحيوانية ، ويسميها الحساسة ، وإلى التفكير والتعقل فيما يختص بالنفس الإنسانية أو العاقلة.

ولكن هذا المنهج العلمى ، الذى اتبعه أرسطو ، لم ينظر فى داخل النفس الإنسانية يشاهدها ويسجل أحوالها المختلفة ، وهى أحوال عجيبة تختلف من فرد إلى آخر ، ومن ظرف إلى ظرف .

هذا ما فعله رجال التصوف فى الإسلام

ولهذا السبب إن شئنا أن نلتمس الدراسات النفسانية الإسلامية حقا ، فعلينا أن نذهب إلى المتصوفة فنستقرىء كتبهم ، فقد أفاضوا فيها القول فى وصف الأحوال النفسية ، أو الحياة الوجدانية الشعورية ، تلك الحياة التى تتميز بوصف الانفعالات والعواطف المختلفة . من حب وبغض ، وخوف ورجاء ، وغضب واطمئنان ، وغيبة وحضور ، وغير ذلك مما يسميه الصوفية باصطلاح خاص هو « الأحوال » .

إنظر إلى قول ابن الفارض :

وفى الصحو بعد المحو لم أك غيرها ... وذاتى بذاتى إذ تجلت تجلت
متى حلت عن قولى أنا هى أو أقل ... وحاشا لمثلى أنها فىّ حلت

فهو يصف « الذات » ، ماهى ؟ وكيف يحس بها ؟ وكيف يتصل بنفسه ؟ أو بذاته ؟ وماذا يجرى عندما يتصل بذاته هذا الاتصال المباشر ، وهذه العملية هى المعروفة فى علم النفس بمنهج الاستبطان أو التأمل الباطنى .

واصطلاح الصحو ثم المحو ، هو ما يعبر عنه علم النفس الحديث باسم الشعور ، واللاشعور ، فى مذهب فرويد ومدرسته .

وليس معنى أن الإنسان يكون فى حال المحو ، أو اللاشعور ، أنه قد فقد ذاته ، أو أنه غير حى ، على العكس ، إنه يتصل بذاته حقا ، ويتجلى بها ، كل ما فى الأمر أنه فى حالة لا شعورية .

وأوفى كتاب حلل الظواهر النفسية الوجدانية تحليلا وافيا هو إحياء علوم الدين للغزالى ، فمن شاء أن يستخرج رأى علماء الاسلام فى علم النفس فعليه بذلك الكتاب .

وهناك كتب كثيرة من كتب الصوفية تجد فيها وصفاً دقيقا للأحوال النفسية المختلفة ، سواء من الناحية العامة ، أم من ناحية التجربة الدينية ، وهو ما تعنى به هذه الكتب بوجه خاص ، مثل كتاب « الرعاية » للحارث المحاسبى ، والفتوحات المكية » لابن عربى ، « وقوت القلوب » لأبى طالب المكى ، دون أن نستطرد إلى ذكر هذه الأمهات المعروفة لدى القراء .

ولم يتوفر باحث حتى الآن على جمع مشاهدات الصوفية التى سجلوها فى كتبهم ، وقام على بحثها بحثا علميا منظما ليخرج من ذلك بتصوير صحيح دقيق لنظرية المسلمين الصوفيين فى علم النفس .

ونحن نرجو أن تنبه هذه الكلمة القصيرة الأذهان إلى مثل هذه الدراسة ، التى نهج وليم جيمس نهجها فى كتابه « ألوان من التجربة الدينية » .

أحمد فؤاد الأهوانى